إفريقيا المسلمة متحمسة للغة القرآن

... ولكن ضعف الوسائل يحول دون انتشارها

الشيخ شريف مكي حسيد

(حلب)

لعل اظهر مظاهر الترابط بين الاسلام ولغة القرآن ، ان الاسلام لا يمكن ان يفهم فهما كاملا بدون التعمق بدراسة لغة القرءان ..

فقد نزل الوحي الرباني على النبي الكريم بهذه اللغة التي جمعت فاوعت .. وكانت من البلاغة وسحر القول ما هز النفوس وايقظ الضمائر ..

وحين استفاضت الدعوة المحمدية لم تشمل العرب فحسب ، بل تجاوزتها الى الكثير من اقطار الدنيا فاستجابت لها امم من الشرق ومن الغرب ، متباينة الاهداف والانظمة والعقائد واللغات ـ استجابت للدعوة المحمدية لا لشيء الا لما تضمنته من مباديء انسانية ونزعات مثالية ونظم خيرة وسنن كريمة .

وقد اقبل غير العرب على تعلم لغة القرءان بغية فهم محكم آياته فانكشفت لهم آفاق ترفع من كرامة الانسان وتصون حقوقه وتثيره ليكون اداة بناءة في دعم الحضارة الانسانية ..

وما هي الا فترات لم تطل ، جيلا بعد جيل ، حتى كانت العزيبة ،، قد هزت افئدة فطاحل الرجال الاذكياء من مختلف الامم ، فعكفوا وهم يدرسونها ، على التعمق في اسرارها فما كادوا يلمسون هذا الجمال ، وهذا الغنى في الفاظها ومفرداتها ، وفيما تحمله حروفها وحكماتها من دلالات ومضامين هدتهم الى فهم آيات القرءان واحاديث النبي وكل ما يتصل بروح الشريعة الاسلامية حتى اخذوا يؤلفون بالعربية دون لغاتهم الاصلية التي ما كانت لتستطيع التعبير عن آرائهم وخوالجهم بهذه الآفاق المنطلقة .

والتآليف التي تركوها تقل في قيمتها العلمية عن التي الفها ابناء العرب الخلص .. ولا مبرر لهذا الاتجاه الا الحافز الذي دفعهم لادراك اسرار الشريعة الاسلامية ، ثم النزعة التي فاضت بها القلوب بحب هذه اللغة التي نزل بها القرآن فكانت الشعلة التي اوقدت الافكار فتركوا لنا تراثا ضخما ما تزال البشرية تعيش على روائعه مختالة فخورة ..

ولا مجال لذكر الاعلام الذين الفوا في العربية فهم من شتى الامم ، من الفرس والترك والديلم والهنود ، حسبي ان اذكر الفارابي ، وابن جني ، والغزالي ، وابن-سينا ، والفخر الرازي والبيروني ، والسهروردي وعشرات من الفحول الذين تركوا لغتهم وكتبوا تاملاتهم وءاراءهم في الدين والتصوف والعلم والادب والحكمة ـ كتبوها بالعربية الفصحى وما تزال متداولة حتى يومنا هذا ..

وفي خزانتي كتاب باللغة التركية عنوانه « عثماني مؤلفلري (1) لمؤرخ اديب اسمه «بروسلي

(1) الكتاب في مجلدين كبيرين نيفت صفحاتهما على الستمائة صفحة بالحرف الصغير .

محمد طاهر» ترجم فيه لمئات المؤلفين الاتراك الذين دونوا علومهم بالعربية .. فهم مؤرخون واطباء ورياضيون وجغرافيون وشعراء وادباء وعلماء — الفوا بالعربية وبالتركية والفارسية وما الفوه بالعربية اكثر ..

وافتتح هذا الكتاب على غير هدى ، واقرأ سيرة عالم عرف باسم الـ «الكافيجي» او «الكافيجي» اسمه ابو عبدالله بن سليمان بن مسعود الرومي احد فضلاء الاتراك ، هجر قريته « برغمه » وقام برحلات الى اطراف الاناضول ، والى ايران ، والى آسيا الصغرى يتصل بالعلماء ويأخذ عنهم ، ثم انتهى به المطاف الى مصر فاتصل بالملك الاشرف بريباي الذى اكرم وفادته وخلع عليه الخلع ، ثم ناط به احدى الرتب العلمية .

لقد ترك هذا المؤلف التركي عشرات الرسائل والكتب بالعربية منها :

1 — التيسير فى علم التفسير

2 — انوار السعادة فى شرح كلمة السعادة

3 — تشريح مسالة الاستثناء

4 — الاشراق فى مراتب الطباق

5 — سيف القضاة على البغاة

6 — الفرح والسرور فى بيان المذاهب

7 — نزهة الارواح وغبطة الاشباح فى التصوف

8 — شرح تهذيب المنطق والكلام

9 — منبع الدرر فى علم الاثر

10 — منازل الارواح

11 — المختصر المفيد فى علم التاريخ

12 — حل الاشكال فى مباحث الاشكال والهندسة

13 — تفسير الآيات المتشابهات

14 — نزهة المعرب فى المشرق والمغرب

ويصل عدد هذه الرسائل والكتب الى الاربعين كتابا .

واكثر الكتب التى اشار اليها مؤلف الكتاب ، هي مخطوطات فى مكتبات استانبول والاناضول .. ولا اعلم اذا كانت بعثة الجامعة العربية لتصوير المخطوطات العربية والتى قامت بعدة رحلات الى تركيا — قد اهتدت الى هذه الآثار وصورت بعضها !..

* * *

كان علماء الاتراك فى عهد السلطنة العثمانية يؤلفون الكثير من كتبهم بالعربية كعلماء الفرس تماما ..

ومنذ عهد الغازي اتاتورك ، وقبله بسنوات ، اي منذ ذرت « العنصرية الطورانية » قرنها — توقف هذا الاتجاه ، بل قضي عليه تماما بعد ان استبدل الاتراك الاحرف العربية بالاحرف اللاتينية — وهذه جناية لا تغتفر فرضها اتاتورك على الشعب التركي الذى فصل بينه وبين الحرف العربي المقدس الذى نزل به القرءان .. وكاني به قد مس الاخوة الاسلامية فى الصميم وجعله يتجه الى الغرب بدل ارتباطه بالشرق وبالشرق الاسلامي بصورة خاصة.

واستدرك فاقول ان الشعب التركي بمجموع افراده وطبقاته ومجتمعاته متدين عميق التدين ، يفيض قلبه بروح الاسلام ، وما يزال مرتبطا بحسه وقلبه وضميره ببلاغة القرءان .. ولكن هذه الصلة بين الروح الاسلامية وبين الجيل الجديد سيمروها شيء من البلبلة والتفكك الا من عصم ربك !

اذكر بهذه المناسبة ان نقاشا كان دار بيني وبين صاحب جريدة « آقشام » — الماء — الاستاذ نجم الدين صادق — وهو من انصار اتاتورك المتحمسين — دار هذا النقاش حول الحرف اللاتيني ، واذكر انه قلت له : ان الجيل الجديد سيعيش غدا فى متاهات مظلمة حين يبحث عن اصل الكلمات التى دخلت لغته — وقد دخلها الكثير من لغات الشرق والغرب — . وضربت مثلا عدة كلمات منها كلمة « المحبة » — والاتراك يقلبون الحاء «هاء» فيلفظون المحبة « مهبت » ، وامثالكم من الجيل القديم يدرك ان اصل الكلمة من «الحب» وهي كلمة عربية ، اما الجيل الجديد — وقد قطع صلته بالحرف العربي — فسيجهل الكثير من اصل الكلمات التى يتحدث بها او يكتبها — سيجهل اهي عربية الاصل ام افرنسية ام سنسكريتية — وبذلك تطغي البلبلة على افهام النشء الجديد الذى سيعيش فى تيه من الرطانات!

واقر بالامر .. ثم قال اننا اخترنا الخطة التى رسمها الغازي ولا حيلة لنا فى الامر ، ولسنا نادمين!

هذا وقد استطاعت العربية ان تفرض ذاتها على الكثير من الامم الاسلامية فكان لبلاغة القرءان اثرها فى النفوس وفى العقول وفى الاذواق .. ومن هنا ظل الترابط وثيقا بين العربية والاسلام ، وكان لهذا الترابط اثره فى غير المسلمين ولدى المستشرقين بصورة خاصة فاننا نقرأ لكثيرين منهم دراسات باللغة العربية على غاية من العمق والقيمة الفكرية .

قد يقال ان عكوف المستشرقين على تعلم العربية يختلف كل الاختلاف على اولئك الذين اجتذبهم الاسلام الى رحابه ودخلوا فى دين الله افواجا .. ولا نقول غير ذلك .. الا ان غنى اللغة وسحرها واستيعابها لروح الاسلام ولشريعته السمحة هي التي اجتذبتهم الى دراستها فتركوا آثارا تعتز بها الدراسات المنهجية وان شاب الكثير منها نزغات وشكوك ولوثات لم تخف على الباحثين الذين تناولوها بالرد على ضوء من الحقائق المجردة التى ترضى العقل والضمير ويقرها الايمان والفكر الحر ..

وبعد فليس هنا مجال التوسع فى هذا الاستطراد الذي جاء عرضا وانا اشير الى لغتنا الجميلة التى عاشت مع القرون وما زالت حية نابضة معبرة عن الكثير من الخلجات الانسانية ، تأخذ وتعطي دون ان يصيبها الهزال او الشيخوخة او الموت الذى اصاب الكثير من اللغات !

* * *

وقد ظلت العلاقة بين الاسلام واللغة العربية غير منفصلة طوال عصور التاريخ .

ففي بلد الشام، ونرجع الى عهد الفتح العربي، كانت لغة السوريين خليطا من الآرامية والسريانية واليونانية وغيرها من لغات ولهجات .

وكانت العربية على لسان بعض القبائل والمشيخات العربية القاطنة فى الاطراف والتخوم ، فلما جاء الفتح العربي يحمل رسالة السماء بلغة عربية صافية تهز المشاعر بايقاعها الموسيقي ، وتثير الافهام بمعانيها السامية التى صانت «حقوق الانسان» وحددت له واجباته ومسؤولياته نجد الله والمجتمع — استطاعت لغة هذه الرسالة ان تكتسح بقية اللغات وان تحتل الصدارة فى البيئات الرسمية والشعبية وعلى السنة القوم على اختلاف نحلهم ومذاهبهم ، وما هي الا فترات لم تطل حتى انقلبت بلاد الشام عربية اللسان ، وعربية الفكر والقلب والوجدان ، وانضوت باكثريتها تحت راية القرءان .

لقد كان هذا الحدث من اقوى العوامل والاسباب التى ربطت ، فى الاقليم الذى اعيش فى ظلاله ، بين العربية والاسلام .

ومن الشام انطلقت البعثات تنشر هذه الرسالة، رسالة النبي العربي فى انحاء الدنيا .. تنشر الدين واللغة معا . واذا الاسلام ببلاغة القرءان وبدستوره المحكم يقضي على الوثنيات ويصبح للغة العربية هذه القداسة فى نفوس القوم والاداة المعبرة عن هواجسهم وآرائهم فى شتى شؤون الحياة والمجتمع ، وفى شتى الوان المعرفة ..

* * *

هذا وان ءاثار لغة القرءان جلية فى انتاج علماء العجم .

نلمس ذلك فيما كتبه شاعر الباكستان العظيم محمد اقبال ، ففى اكثر كتاباته صور من نفحات القرءان ، والفاظ تنبع من صميم القرءان .

ونلمس هذا عند شاعر الترك الاعظم عبد الحق حامد . فالكثير من شعره وادبه مزدان بنفحات من كتاب الله العظيم ..

واستطاع القرآن ان يصون لهجات الجاليات الاسلامية فى الاقطار الغربية — من الهلهلة ، بل كان له اثره فى اضفاء رونق جميل على أدبهم . وهذا ما نلمسه فى ادب المهجريين وشعرهم واكثرهم من اخواننا المسيحيين !